

الفوضى الخلاقة

Creative

بقلم : ابراهيم الولي | سفير عراقي سابق

كنت قد استعرضت في كتابي (اسقاطات السياسات الدولية على الشرق الاوسط خلال مائة سنة ١٩١٦-٢٠١٤) بعض اسباب تدهور الاحوال السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في بلداننا العربية خاصة ، بل و الاسلامية عامة ، فكان احد تلك الاسباب ما سمّي بالفوضى الخلاقة اذ قلت (إن في الغرب من خطط و نفذ و اعترف بانّ عملية اصلاح سياسي فُصد منها ادخال الديمقراطية في بلد ما، اقتضت توجيه صدمة لبعض النظم ، بل قل لجميعها في منطقتنا تباعاً ، سميت بالفوضى الخلاقة التي تصيب خَبَطَ عشواء ، لتفرز كيانات لا يدّعي احدٌ ، حتى مخطوها التكهن بكنهها ، بل لعل هذه العملية انما تقوم على اسلوب التجربة و الخطأ

Trial & Error

فحسب و غالباً ما تخلف وراءها دولاً فاشلة يسهل استغلالها و حتى الاجهاز عليها ، فهي لا تتحكم او تحمي شعبها و ارضها .) و كنت قد المحت في نهاية الكتاب الى انّ ما جاء فيه من فصول انما كانت شبه رؤس اقلام اردت منها دعوة القراء الى متابعة تفاصيلها بالقراءة و البحث إن رغبوا . . لهذا وجدنتي اتناول ببعض التفصيل هذا الموضوع

ما هي الفوضى الخلاقة

قد يلاحظ القارئ ان التسمية جاءت بكلمتين متضادتين فُصد منهما تخفيف وطأة احدهما ، فالفوضى كلمة تعطي معنىً سلبياً لموقف اخلاقي ، فهي كلمة غير مستساغة ، لهذا أُلْحِقَ بها تعبير (الخَلْقُ) بمعناها السامي الذي يشير الى الايجابية و البناء مقابل الهدم . هذه الصياغة لم تأت صدفةً ، بل هي تركيب مدروس بعناية و ذكاء بقصد جعل التسمية مقبولة لدى الشعوب التي تطبق عليها . والحقيقة انّ هذه العملية لا تمت الى اي عمل فاضل بصلة ، وانما يكون هدفها لا اخلاقياً ، فهي اداة من ادوات لعبة الامم ، فهي بهذا تكون عملية صفرية تقوم على الربح مقابل خسارة كاملة لسبئي الحظ الواقعة عليهم و لو تدريجياً خلال مراحل ، و قد يكون فيه كسب لمرتكبيها بقدر الشر الواقع على المُستهدَفين بها .

طبيعي ان نسمع بان مخططي هذه العملية يوهمون العالم بان اللجوء اليها يأتي كضرورة لاصلاح اوضاع سياسية في أي بلد نام بعد اذ بدا لهم ان اصلاحه ، كما يخلو لهم ، كان عسيراً و ان الهدف في كل الاحوال يفترض ان يسفر عن وضع جديد قابل للاستغلال .

يدرك القائمون على العملية انها فساد لا اعتبار مطلقاً للاخلاق فيها .فالمخطط انما يستهدف العقل الجمعي لجماعة ما في بلد ما ، لتكون ادواته و آلياته في التغيير هم عادة مجاميع فاسدة من مواطني تلك البلدان..فهي تتسلل بتؤدة مستهدفة قيما و معتقدات و اعرافا و عادات الشعوب كي تهدم السلم الاجتماعي هنالك من خلالهم ..اي انها تخرب البلدان بايدي ابنائها الذين تكون قد شخصت مواطن ضعفهم المتمثل بالتنصل و الابتعاد عن التمسك الحق بروح المواطنة ، وما الفوضى الخلاقة - كالفلسفة و آلية عمل للمحافظين الجدد - سوى تخريب للنظام السياسي العالمي ، حتى لذلك الذي انشأته معاهدة وستفاليا التي مثلت قمة التنوير السياسي الغربي ، وليس هذا فحسب ، فقد ضرب هؤلاء عرض الحائط بسلطان المجتمع الدولي ممثلاً بالامم المتحدة و قراراتها .

من هم المحافظون الجدد Neoconservatives

لقد افردت في كتابي المذكور حيزاً اصف فيه هذه الفئة المنفلتة عن الجمهوريين الامريكان التقليديين..لكني هنا اود التركيز على اهداف و ركائز هذه الفئة ذات التأثير المحوري في السياسات الامريكية الذين جاھرت، نيابةً عنهم، وزيرة خارجية بوش السيدة كونزاليزا رايس حين اعلنت سنة ٢٠٠٥ في حديث لها في **الواشنطن بوست** عن نية امريكا نشر الديمقراطية في العالم العربي و البدء بتشكيل الشرق الاوسط الجديد عبر نشر الفوضى الخلاقة هناك .

لقد كان العراق المقصود بهذه المبادرة الشريرة على اعتبار انه سيكون نموذجاً للآخرين في الشرق الاوسط على الاقل . **Paradigm**

في ظني ان تصريح رايس جاء كاشفاً لنهج عمل، وليس منشئاً لتطبيقات فلسفة الفوضى الخلاقة ، لهذا ساعود الى الفلاسفة الغربيين ؛عرايبها ، فالفلاسفة هم معلمو التشريعيين في اي بلاد... فلأبدأ بالابعد من هؤلاء الركائز ؛ هناك نيكولو ماكيافلي الإيطالي صاحب كتاب الامير (١٤٢٦ - ١٥٥٦) الذي رفض القاعدة الاخلاقية للسياسة من حيث كونها ركيزة للفضائل المدنية ، وابقى على عملية الحكم و الادارة كداء فني فحسب، و هو الذي بشر بالقول أن الغاية تبرر الوسائل، و ان السياسة

ليست سوى الغش و الخداع .
واضح كم تسربل المحافظون الجدد بهذه المبادئ الإنتهازية . و صعوداً في سلم
الفلاسفة من ذوي التأثير على هؤلاء و بلورة آلياتهم في الأداء ، أعني الفوضى
الخلاقة ؛ هنالك نبداً بالفيلسوف الألماني هيغل

Friedrich Hegel

الذي تميزت فلسفته المثالية بما يعني ان الأشياء المادية ليست هي ما نحسّه او ما
نستقبل من صورها لانها ذات طبيعة ذاتية لا يمكن ادراكها حسياً .. وقد خالف
كارل ماركس هذه المثالية إذ رأى انّ المادة تسبق الوعي مؤسساً بذلك للتفسير
المادي للتاريخ و للجدلية المادية . ديالكتيك مناقضاً الديالكتيك الهيجلي القائل بان
ليس هناك شيء دائم، إذ ان كل شيء يمر بمراحل انتقال و تطور ، وانّ هذا التناقض

Phinomenal Contradiction

هو جوهر المظاهر كافة . ويقول هيغل انّ الحياة إذا قاربت حافة الإنهيار فإنّ إعادة
تنظيمها يجب ان تتم بأقصى درجات العنف.. و ناتي بعد ذلك الى الفيلسوف
الالمانى اليهودي ليو سترافوس ، الأب الروحي لحركة المحافظين الجدد، القائل
بالكذبة النبيلة من اجل تحقيق الأهداف الاستراتيجية .

يأتي بعد هذا بيل كرستل مؤسس مشروع القرن الأمريكي الجديد (١٩٢١) ، ثم ياتي
ليون تروتسكي الذي يدعو الى استمرار الثورة الدائمة لبعث أممية رابعة
للتعويض عن ما سبقها من الأمميات و لخلق قيادة ثورية للطبقة **International**
العاملة . ثم يجي دور الفيلسوف المستشرق برنارد لويس المتطرف الذي طالما
جاهر بعدائه للعرب و المسلمين .

وفي عصر ما بعد الحداثة يجي دور فيلسوفين اكاديميين امريكيين هما ؛ صموئيل
هنتنجتون و فرانسيس فوكوياما . يبشر الاول بصراع الحضارات ، إذ يرى انّ
مستقبل البشرية لا يكون جراء صراعات سياسية او اقتصادية او اجتماعية، و انما
سيكون صراعا بين حضارات تسع ، سمّاها ؛ حضارة اسلامية، و غربية و لاتينية و
هندية و صينية و يابانية و أفريقية و بوزية و أرثوذكسية

فالصراع بين هذه الحضارات حتمي الوقوع مستقبلاً وليس غير ذلك .
اما الثاني فقد جاء يبشر بنهاية التاريخ في العالم ، إذ يرى انّ التاريخ قد توقف عند
نهاية الحرب الباردة ، اي عند انهيار الإتحاد السوفياتي ١٩٨٩ إذ كان العالم قبل ذلك
التاريخ في ازمات و صراع بين الرأسمالية و الإشتراكية (العالم الغربي في جانب و
الدول الإشتراكية في الجانب الآخر) . لهذا فهو يبشر بان العالم سيبدأ متمسكاً بنظام
دمقراطي لبرالي تقليداً للنظام الأمريكي . فالدمقراطية عنده هي نظام الإنتخابات الذي

يتحكم في اساليب الحكم ، اما اللبرالية فهي التأكيد على حرية الفرد في جميع مناحي الحياة فضلاً عن حرية الإعلام و العبادة و العلاقات الإجتماعية عموماً، أي ان يتشكل العالم من جديد على النموذج الأمريكي .

مما تقدم يتضح لنا إن المحافظين الجدد، وهم نخبة من المثقفين و الفلاسفة، إنما ارتكزوا في تكييف فلسفتهم السياسية القائمة على الفوضى الخلاقة على فلسفات لفلاسفة قدامى و مُحدثين إذ اجتزوا ،في كثير من الحالات ، السليبي منها بما يتطابق و نزعتهم التسلطية و العدوانية على بني البشر . و يكفيني ان استشهد بتصريح كارلوتشي ، مستشار وزير الدفاع الامريكي ، يقول ؛ “إن لدينا ستراتيجية عليا و إن الحرب على العراق هي خطوة في طريقها ، نحن نريد في المنطقة نظاماً موالية لنا لا تقاوم ارادتنا و نريد ثروات المنطقة بغير منازع مع ضمان نهائي لأمن إسرائيل الصديق الوحيد في المنطقة ، ولا بد من تغيير النظام في العراق و بعده إيران و ” . سوريا و السعودية و مصر

على ان كل ذلك لا يعني عدم ظهور اصوات نزيهة ، و إن كان تأثيرها ضعيفاً، فهي تحاول كشف زيف هؤلاء و سياساتهم التخريبية . يقول جيمي كارتر الرئيس الامريكي الاسبق في كتابه “القيم الامريكية المعرضة للخطر “ إن المحافظين الجدد قد اصبحوا خطراً على سمعة الولايات المتحدة في العالم . و يقول السيد ليندن لاروش، المرشح السابق لرئاسة الولايات المتحدة “ إن هدف الآفة المسماة إدارة بوش - تشيني ، هو إزالة كل ما يتعلق بوجود الدولة القومية ذات السيادة و ذلك باستخدام الحرب الأبدية فإن هدفهم ليس إخضاع مناطق معينة سياسياً كمستعمرات بل إزالة جميع المعوقات التي تقف في وجه طريق النهب الحر لكوكب الأرض ككل، فإن نيتهم ليس فتح اراض جديدة ، بل تحقيق ازالة جميع بقايا السيادة القومية و تقليص عدد سكان العالم الى اقل من مليار نسمة ، فهدفهم في العراق و افغانستان مثلاً، هو ليس السيطرة عليهما، بل إزالة أمم قومية عن طريق . “ اطلاق قوى الفوضى و الدمار

اعود الى المحافظين الجدد الذين استغلوا نهاية الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفياتي لتخلفه روسيا الاتحادية بقيادة بوتين الذي يعمل دون كلل لإعادة اثبات دورها على المسرح الدولي ، و إن كان ذلك على حساب دمار الآخرين كما هي الحال في الشيشان و القرم و اوكرانيا وحتى في سوريا، ففي هذه الفترة التي احدثت فراغاً هائلاً في جسم المجتمع الدولي ، استغل هؤلاء قوة الولايات المتحدة التي باتت تمارس سياسات القطب الواحد الذي لا منافس له ، وقتننذ ، عسكرياً و اقتصادياً ، ليبادروا الى اطلاق آليات الفوضى الخلاقة جاعلين الشرق الاوسط عامة و العراق

خاصة ، حقل تجاربهم . و لكي يكسبوا الرأي العام المسيحي ،لجأوا الى تفاسير توراتية قائلين انهم سيعيدون السيد المسيح عليه السلام، الى الأرض كي تقوم الحرب Armageddon النهائية حيث الانتصار المسيحي و اليهودي وتارة يدعون لمقاتلة يأجوج و ماجوج الموجودون ، كما يدعون ،في العراق حيث تجب مطاردتهم. على ان هنري كسنجر كرّس هذه السياسات وتلك الأفكار اللاعقلانية و طوّعها عندما كان مستشار الامن القومي في حكومة نكسون ، فقد ثبتت في مذكرة الامن القومي التي تبنتها الإدارات الامريكية لفترة ممتدة حيث قال “ انّ النمو السكاني لبلدان العالم الثالث يعتبر تهديداً للامن القومي الامريكي ، ولحلفائهم،ذلك لأنّ اولئك السكان يستهلكون الثروة المعدنية الموجودة في بلدانهم تلك التي تعتمد عليها الحارة الغربية كمصدر للطاقة المحركة للحضارة . ولهذا كان لزاماً علينا إعادة رسم خرائط الشرق الاوسط عن طريق تفنيتها الى دويلات ذوات طابع احادي ، إثنيّاً او دينياً او مذهبياً .

وفي هذا الجو برز على مسرح السياسة الامريكية زبكنيو برجنسكي و ريغان و بوش الاب و الإبن و تشيني و رمسفيلد و فولفتز و بيرل و رايس و غيرهم ممن تشربوا بافكار ماكيافالي و تروتسكي و سترأوس و هيغل و كريستل و هنتنغتون و فوكوياما

كيف تسللت الفوضى الخلاقة الى العراق

عندما اقول أنّ لعبة الامم بكل اشراطها و قيمها اللااخلاقية و آثارها المرعبة على البلدان المستهدفة ، فانني ارى امامي بلدي العراق كمجسم لهذه الحالة. لقد صمم الغرب،ممثلاً بالمحافظين الجدد ،على ان يكون غزو العراق لعبة صفرية..خسارة تامة للعراق المعتدى عليه ، و ربح ربما غير مضمون للغزاة .

هكذا هي اللعبة ..خُطِّطَ لها من ازمان بعيدة ، تمتد الى اسقاطات الحرب العالمية الاولى على العراق...قيام حكم ملكي، اعقبه حكم جمهوري ،ذو اوجه متقلبة ، و حروب خاضها العراق خاسراً في معظمها، في كل ذلك كان اسياذ اللعبة يحركون شخوصها من وراء الستار..ظَلُّوا يهجمون و يخربون العقل الجمعي العراقي ،و يمزقون نسيجه المجتمعي معتمدين على نفوسٍ لم تكن تؤمن ، للاسف الشديد ،بروح المواطنة الشريفة .

كان المخطط يعمل على إضعاف العراق ، فإن كان بالإمكان إضعافه و جيرانه فمرحباً بذلك...هاكم كيسنجر وهو يجيب على تساؤل عمّن يتمنى ان ينتصر في

الحرب العراقية الايرانية !! فيردّ بانه يتمنى الخسارة لكليهما ، و لقد صدقت نبؤته .

على اية حال ، يبدو انّ المُخَطِّطَ للفوضى الخلاقة، شعر بان الضحية النموذج ، وهو بلادي ، صار ناضجا للقطاف . إفتعل ذرائع تمهد للعدوان عليه بحجج سوّغها لنفسه ثم اقنع آخرين بفعلته، فهو عندما غزا العراق جرّ و راءه مجلس الامن الذي كان متردداً ، رغم سطوة امريكا عليه ، حتى اضطرّ إلى الموافقة على أمرٍ دُبّر بلبيل ففرض على العراق ، شعباً و جيشاً زخماً لا طاقة لهما به، **Ex post facto** فكان ما كان إذ جاء رجل اسمه بريمر لينفذ خطة الفوضى الخلاقة وكان له ذلك، فقد عمّت الفوضى غير الخلاقة في بلادي لآمد ليس بالقصير.. حُلت قوى الامن و الجيش بعمدٍ و اصرار.. حُلفت قيادات لم ارَ فيها كفاءة او نزاهة لاسفي الشديد ... وهكذا اصبح العراق كئيباً ، وَيُجِي عليه ،يناشد ضمير العالم الإلتفات اليه لإنقاذه من هذه الفوضى الخلاقة !! التي يكفيني لتوصيفها ان جعلت العراق الثري فقيراً ، تذوب ثرواته بشكل لا يمكن تصوره على ايدي ادارات تنقصها كارزما القيادة...

إستشرى الفساد في كل زوايا الإقتصاد و اختفت النزاهة و الحوكمة الرشيدة و بات المستقبل مجهولاً ، حتى انّ روح المواطنة قد أضعفت حين تسيدت العلاقات الحزبية و العشائرية ، و تمزق النسيج الاجتماعي للعراقيين.. فهل افضل من هذه النتائج المخيفة ما يفرح المخططين للفوضى الخلاقة تلك التي بدأت ، و بقصد ،تتسرب الى المحيط بنا، و لعل ما يجري في سوريا و اليمن و ليبيا خير مثال و ارهاصات لما سيجرى .

لا يفوتني ان اذكر انّ السيد جورج بوش قد سحب وراه توني بليز، الرئيس العمالي البريطاني الذي فضحه السير شيلكوت مؤخراً حول تأمرهما على غزو العراق بما أضرّ بمصالح بريطانيا فلأ عن امريكا . كلاهما خاسر و العراق خاسر ، و لو انّ اهلنا في العراق تمسّكوا باهداب المواطنة الحقّة التي تضع جانبا كل صفة اخرى ، إثنية كانت ام دينية و مذهبية، انذ لكان خلاص العراق في هذا، فتكون اللعبة الصفرية قد انقلبت ليكون العراق كاسباً ،مقابل خسارة من اضمروا له الشر ، وقد خابوا بإذن الله ... و الله من وراء القصد